المكان العلامة في رواية (مدينة اللّه)

الدكتورة
فاطمة عيسى جاسم
كلية التربية - جامعة الموصل

المقدمة

يحمل حسن حميد المتلقي من مكان لآخر، بين التلال والاحياء، وفي الشوارع والازقة، ويدخله في البيوت القديمة والجديدة، ويسمع كلام رجالها ونسائها ويريه حركات الاطفال، ويجعل المتلقي واحداً من المقيمين فيها كما يعيش سكانها تأكل طعامهم وتشرب شرابهم بل ينتمي اليهم.

يرسم حسن حميد صورة المدينة المقدسة في أوساط القرن العشرين بمحافظتها على العادات وتمسك أهلها بالتقاليد ولا سيما في أحيائها الشعبية التي أولاها اهتماماً كبيراً حتى يدلنا على حارتها الرابعة على أرضها منذ فجر التاريخ فضلاً من مآذن المدينة التي تسبح لحمد الله تعالى ولم تنسى يوماً أنها أول القبلتين وآخر الحرمين، ومسرى النبي (صلى الله عليه وسلم)، وتتعدد التسميات في الرواية عن (مدينة الله) أول الدنيا/ أقرب الامكنة الى السماء/باب السماء/ بلد السيد المسيح/ ويركز على اشجار الزيتون بما تدل على المقدس، فتقوم جرافات العالم بعمل وفشي لاقتلاعها لتزرع مكانها الارز.

تتحدث الرواية بأسلوب مشوق عن جماليات المدينة المقدسة مكانتها في التاريخ وعن قسوة الزمان والصبر الطويل، فهي تحكي عن زمن مضى، وزمن سيأتي ليقول للناس لن يبقى الغزاة إذ أن القبور شاهدة على جرائم عصابات اسرائيل، وهذا الزمن الذي يعيشه الشعب الفلسطيني من خلال تدمر القرى والحواجز المنتشرة والارهاب والتنكيل والقتل المنظم.

حملت الرواية عنوانات فرعية تحمل دلالات تؤكد هوية القدس العربية بأحيائها وشخوصها ببراعة من الوصف، من حيث ذكر التفاصيل المتعددة انواع الطعام، والشوارع والجمع والنذور والزيارة، والمآذن والكنائس، فيوحي العنوان بصمود البشر في هذه المدينة المقدسة فيها يصمد البشر كما لم يصمد أحد كيف واجه الناس هذا القمع كله والارهاب، ان هذه المدينة تبني ما يهدم العدو، وتسكن حول ما تهدم، أراد الكاتب (حسن حميد) أن يؤكد بأن المقدس كان وما يزال يريد مدينته المقدسة مدينة لكل الناس والاجناس والفئات.

يثبت من خلال احداث الرواية قضية الشعب الذي قاتل ولا زال يقاتل ووصف حالات الفزع والخوف للبحث عن الهوية من خلال المصير ليكشف عن آفاق جديدة لفهم القضية، وهو في روايته هذه ينشر في نفس القاريء نفحات من جمالها وأصالتها وقداستها، ويقنعه بأن المقاومة بالقيم والارادة أساس كل مقاومة فعالة.

يمثل الحدث الاستعماري حقيقة أجنبية خارجية كانت عسكرية اقتصادية في الأصل، ثم امتدت الى السياسة فالأوضاع مقوضة شيئاً فشيئاً الحقيقية التي كان يعيش عليها العرب في فضاءٍ بين التشتت والانقسام.

لكن هذا الفضاء الذي أراده الاستعمار صورة منه وتجسيماً لإرادته ونقياً للفضاء الاصلي لم يستوِ له حراً خالصاً بسبب مقاومة الناس له وحرصهم على الانقلاب الى أداة فاعلة فيه وارتباههم الى ما يمكن أن يصيب هويتهم من التشويه من جرائه وتعلقهم بالمكان الاصلي وانسجامهم معه بفضل ما لهم فيه من المراجع القديمة الالفية المتطابقة مع تصورهم لشخصيتهم ورؤيتهم للحياة.

إلا أن هذا الرفض لم يكن مطرداً أو متساوياً عند الناس جميعاً أو هيناً سهلاً بل أنه ليكلف النفس عزيز الجهود وثقيل التضحيات، ويحملها على مراجعة تمثلها للمكان وموقفها من الحياة وفهمها للمعرفة، ويدعوها الى

صياغة ذاتها على نحو ما يقتضيه المكان المؤمل والمستقبل المنشود ووتيرة التغير السريعة والعميقة.

فالمكان في رواية (مدينة الله) يمتلك دلالاته الحياتية بوصفه واقعاً معيشياً، لكنه يمتلك أيضاً دلالات نفسية اثر تفاعلة مع الشخصيات التي تبقى فيه أو تتركه، فضلاً عن تفاعله مع الاحداث لتكوين دلالاته الأيديولوجية والاخلاقية والاجتماعية المستمدة من أنماط الاحداث والصراعات ومواجهته لها أو الجدليات أو القضايا العامة والخاصة في المجتمع الفلسطيني.

وعليه فإن المكان الروائي في رواية (مدينة الله) عنصر غالب ومهم يحمل العديد من المعاني والصور والدلالات ضمن ابعادهِ النفسية والاجتماعية والتاريخية والعقائدية فضلاً عن وظائفه الفنية الي ترتبط به ولا تفارقه، والاحساس به (يكون مرتبطاً بالوعي الحسي والنفسي والحدسي الادراكي بهما والتأثير بما يضمراه من رموز ودلالات ..)[1].

فالاحساس بالمواطنة والألفة في الرواية يتأتى من الاحساس بالمكان الذي على أرضية المجتمع قائم ومتفاعل معه، واصبح يمثل الهوية والوطن الذي يحمل تاريخاَ عبر القرون من خلال المركزية الفاعلة التي يحتلها المكان في رواية (مدينة الله) . فهو مكان واقعي يمثل مستوى من مستويات المكان الواقعي والتاريخي الذي يتشكل لغوياً داعماً حضوره الذي يتغلغل عميقاً في الكائن الانساني حافراً مسافات ومسارات في مستويات الذات الانسانية وما تعانيه من قهر واستلاب الحرية والقيم والاخلاق مما يمنحها القدرة كرد فعل على توليد الدلالات من خلال موقعها داخل نسق خطي مستقيم يحمل خصوصية مكانه تبعاً لعلاقة الشخصيات والحدث والزمان وما يدفع به السرد من حضور ومعطى مكاني يعمل على ربطه بعناصر الخطاب الروائي ربطاً يجعل منه نسيجاً متشابكاً محكماً متلاحماً، شديد الاتساق والترابط.

فيكون المكان المركزي لـ (مدينة الله) هو الارض والوطن، صوت الحقيقة الخارج من أعماق الصمت المحاصر في النفس البشرية، فعبر عنه الروائي

(حسن حميد) عبروعية بالذات ودوره الفاعل في الحياة وضرورة هدم حاجز الصمت والخروج عنه والخوف والبدء بالكلام والرفض والتمرد. فتفاعل ذلك كله لينطق صوراً ويبرز دلالات ورؤى داخل النص الروائي (مدينة الله) والذي أظهر فيه أبعاداً متباينة تتناول فيه موقفاً معبراً عن الواقع الذي يسعى الى تشكيله عبر وقفات محيطة بالنص والتي تعد مفاتيح لمغاليق النص وفك ثغراته المتنوعة ليستخدمها في استكشاف اغوار النص وبنيته العميقة قصد استنطاقها وتأويلها.

تنطلق هذه القراءة من مبدأ المكان عموماً ليس طارئاً في حياة الكائن الانساني وانما معطى قائم بذاته حيث (تفترض بنية النص الروائي فضاءات مكانية تخترقها الشخصية الروائية ويخترقها الفضاء ذاته ويصوغها وفقاً لقوانينه وطقوسه)[٢].

فالمكان هنا لا يتوقف حضوره على المستوى الحسي وانما يتغلغل عميقاً في الكائن الانساني ليتحول أشبه ما يكون ملتصقاً بالشخصيات ومتوحداً فيها ومعبراً عن ذات مقهورة مستلبة الحرية والارادة من كيان مغتصب وهو بذلك حيز يحتضن عمليات التفاعل بين الأنا والعالم الداخلي (الذات) والخارجي (المجتمع) من خلاله نتكلم وعبره نرى العالم ونحكم على الاخرين فبدون معرفة المكان والاحاطه به والالمام بأسراره الدقيقة يمكن أن نقع في (كثير من الفجوات والانقطاعات الدلالية والادراكية نتيجة الجهل بفلسفة المكان وتنظيمه لدى الاخرين)[٣]، فمعرفة الأنا تتم من خلال المعرفة بالاخر وثقافيه المكان وطرق تواصله إذ (لا يمكن أن نعي ثقافتنا إلا وعياً غامضاً إذا لم نجابه افراداً ينتمون الى ثقافات أخرى)[٤].

فالمكان في رواية (مدينة الله) قد حاز على بطولة النص إذ انبثق من رؤى موضوعية وذاتية وتشكيلية وبينية في النص، واضحى قوى تحدد طبيعة واتجاه النص الروائي.

كذلك أصبح المكان هنا مفتاحاً لمغاليق متنوعة لكثافة حضوره ومنطقه رخوة (يلج منها القارئ الى تضاريس النص الروائي بقصد تفكيكه واستنطاقه والقبض على جماليات النص المختلفة)[٥].

لقد خاض المكان رحلة طويلة في متاهات الرواية (مدينة الله) عبر التاريخ ومن خلال الزمان والتعرض لفاعليات الصيرورة وتحولاتها لكي ينتقل من الفضاء القابع في نصوص معتمة جوفاء الى فضاء ثقافي انساني يعبر من خلاله عن واقع أمة أنه مستلبة الحرية والارادة وفق رؤية ميثولوجية قائمة على تغيير الواقع وهدم الصمت في نفوس الناس وبالتالي الانتقال من خلاله أيضاً الى (فضاء جمالي وفني) يتكون إزاءه صورة أخرى للعالم والمكان المعاش والذي يميزه (الانزياح والتحول والنفي عن أمكنة الواقع حيث يصبح للمكان خلقة أخرى في النص)[٦].

إن المكان في هذا النص (مدينة الله) أو رغم استقلاليته وخضوعه لقواعد وقوانين النوع الفني يتناول العلاقات مع غيره من التقانات المتنوعة في النص ويتغلغل في كيان الذات الانسانية والتقانة المتنوعة وعليه فأنه يشتغل في قلب الحدث ووجوده وليس على حوافه أو خارج حدوده وهذا ما ألمح اليه ميخايل باخين حيث يقول:

(إن العمل والعالم المصور فيه يدخلان العالم الفعلي ويغنينانه والعالم الفعلي يدخل العمل، والعالم المصور فيه أثناء عملية الخلق كما في سيرورة حياته اللاحقة في التجدد الدائم للعمل وفي الادراك الخلاق من قبل السامع القاريء (المشاهد) لهذا العمل، إن عملية التبادل هذه زمكانية بالطبع فهي تتم قبل كل شيء في عالم اجتماعي متطور تاريخياً ولكن دون انفصال أيضاً عن المكان التاريخي المتغير)[٧] .

وعلى هذا فأن قراءة البنية المكانية في هذه الرواية تقتضي إثارة الاحساس بالتاريخ في جميع أشكاله، وهو بدوره يثير اهتماماً بالمكان أيضاً لما له من

أهمية في اخضاع الحوارات التاريخية لمكان معين، فالمكان التاريخي (تفوح منه رائحة القرون والاجيال السالفة مشيراً بخصوصية الى الجذور التاريخية العميقة)[٨].

فهو يمثل تراث أمة يسجل تاريخها ومآثرها ووقائعها حيث يؤرخ لهذا التراث في زمن ماضٍ بعيد، لأن التاريخ هو الزمن الذي يعطي للمكان قيمه المتغيرة من عهد لآخر ويتجسد خلال التغيير الذي يحدثه الزمن أو الاحداث في بقعة مكانية معينة، وهو بهذا يكتسب حصوراً فاعلاً يمنح النص بعداً شاملاً بانفتاحه على الحضارة والتراث والتواصل مع الماضي، ومن جهة أخرى يمنح المكان التاريخي القدرة على التجدد والافلات من قيود الزمن بالخروج من دائرة الماضي والحضور المتواصل عبر النص الروائي، ففي (استلهام وإتعاظ بإحداث الماضين، واستذكاراً لوقائعهم وانتصاراتهم (وهزائمهم) وتكويناً لمشاعرهم تجاه تلك الوقائع)[٩]. تنطلق هذه الرواية من مكان رئيسي محدد يتشظى الى اماكن متنوعة متغايرة ضمن أحداث وافعال تشكل بُنى غير ثابتة تنعكس على الفضاء المكاني فتغير الصورة وتعدد المرايا العاكسة للفعل عبر التداخل في البنية الزمانية والأدائية للافعال المتنوعة فتحقق المشابهة الدلالية والتي تتحرك ضمن علاقات فعلية متسقة تستمد وجودها وقابليتها على النمو والتشاكل والاستمرار محدثة تفاعلاً دارمياً بين أبعادهِ وشخوصهِ.

فالرواية الفلسطينية بطبيعتها (تركز اهتمامها على المكان الاصلي من أجل تثبيت تأريخية المكان، فنحن نجد الروائي الفلسطيني لا يريد أن يستبقي الصورة التي تتعرض للتغير قسراً بفعل متعمد يهدف الى تزييف التاريخ والواقع معاً، أنه يسجل صفه في وطنه وعلاقته المستمرة به سواء كان يعيش فيه أو كان منفياً...)[١٠] .

لقد احتفظت الرواية بصورة الارض الفلسطينية وسجلت نسبها العربي وانتسابها الى شعبها، فالمكان فيها أشد بروزاً وظهوراً عبرّ فيه الفلسطينيون من

خلال الادب وتحديداً الرواية عن معاناتهم وتعلقهم بالمكان الذي أُعطيَ حضوراً متميزاً في النصوص الادبية الفلسطينية، هذا الحضور المتميز كان جراء الغياب والافتقاد، وهذا ما نجده في رواية (مدينة الله) والتي نراها رواية مكان بامتياز يحضر فيها المكان من استهلالها بالغلاف وصورته حتى آخر ورقة فيه، فلوحة الغلاف والتي تحمل العنوان (مدينة الله) وهو عنوان مكاني يتشظى الى دلالات متنوعة ضمن سياقات مختلفة تشير الى قدسية المدينة.

في العنوان نجد الكتاب بارزاً وحاضراً حضوراً ملفتاً للنظر على نحو تُختصَر فيه الرواية بمجموعها، فهو بمفرداته يختصر الصراعات الداخلية بين مكونات المكان المتنوعة والاصلية مضيفاً القداسة على هذه المدينة بإضافة لفظ الجلالة فيها، وهو أقدس الاسماء فيها لما اعطاها صبغة قد اسويه روحية تُخرجها من حدود المديات المجردة الى اضافة ونقله تنطلق من مفردات مكانية متنوعة حيث (أندمج الروحي بالمادي وتآلقاً واكتسبت المدينة بذلك جدلاً وقدسية)[١١].

وهذه القدسية لا تتقتصر على جهة أو نظرة مكون واحد من مكونات المدينة وانما ينسحب ذلك على مكونات المدينة كاملة، فهي عند المسيحيين تمثل كنائس المدينة المعرفة بمعالمها ومعاناتها وحضاراتها، فهي تحمل معاني خالدة متجذرة في واقع الحال ومنطلقة من قدسية المكان.

تحمل الرواية بعنوانها (مدينة الله) دلالة الخلود لمدينة الله (القدس) وزوالها لغيرها، ذلك أن مدينة البشر قائمة الى زوال وانتهاء وفناء في حين مدينة الله خالدة مضاءة بنور الهي يتجدد فيها ولا ينتهي.

(هنا في القدس لا تدري في أي وقت تتعالى فيه التكبيرات ودقات النواقيس كما لاتدري من أي الجهات تأتي الروائح ومن اين يتوافد الناس واصحاب العربات والسلال، وكيف تجري الاسواق والحارات بعضها نحو بعض وتتلاقى مثل السواقي، هنا تسلم روحك للشوارع فتماشيك الظلال

والانسام وتباريك الوجوه التي تشبه أرغفة الخبز ويدور بك التلفت والانتباه والصحو كي تلفك غواية المكان المطاف وكي تظل على مبعدة كف من غيبوبة الافتتان..)[١٢] .

(أذكر أنك قلت لي ستدهش وتصاب بسحر المكان ومغناطيسيته ...)[١٣]. هنا .. لا شي يفسد المكان والهواء أو الصفاء ..)[١٤].

تنطلق نصوص المكان في رؤية منهجية وصفية المدينة القدس التي نرى فيها غواية للسامعين وسحراً للناظرين، نرى فيها رمزاً للأخلاء والسلم والتعايش بين مكوناتها.

فالبيوت جاءت مثلاً صفة متكأن بعضها في بعض يألفه حنان ومودة (ها أنا زا أفتكُ روحي من أسر أحياء القدس من جمال الحارات والبيوت والشرفات والساحات والابواب والاشجار والصباحات والمساءات ...)[١٥] .

(هنا ... تتسع الامكنة وتبدوا أسطحة البيوت رويداً رويداً ..)[١٦].

هذا الوصف له دلالاته ورموزه وايحاءاته (يشكل عالمها الحسي ويرسم المساحة التي تقع فيها بل ويحدد الحدث وبأخذ هويته فيغدو مسرحاً للحياة بكل أبعادها)[١٧].

أن الاحساس بالمكان يحيلنا الى معنى يريد به السارد أن يوصله ويعبر عنه من خلال موقف من الواقع يسعى الى تشكيلة عبر شبكة من المرفقات النصية المحيطة بالنص والتي تعد مفاتيح يستخدمها الكاتب للكشف عن مدارات النص والغوص في اعماقه، ومن ثمة يخلق هذا علاقة بين النص والعنوان ليؤدي بدوره عدّة معاني ضمنية واخرى ظاهرة تخضع لحالة الكاتب والمبدع وشعوره وتصوراته الذهنية وأنساق النص البنائية وتشكيلاته الصورية وكل صيغه وتقاناته وادواته الاجزائية.

هذه النمطية تحيلنا الى علاقة تداولية حركية بين النص والقاريء ومن خلال العنوان تتشكل حركة صاعدة تهتك الحجب بحثاً عن الحرية والهوية

من جهة وأخرى غائرة عميقة تحفز عن تفاصيل الحلم ومفارقة الحياة والموت في فعل اجتياح النص والتوغل فيه عبر بنيته المكانية.

البنية المكانية:

هذا الاحساس بالمكان والولوج في بنيته العميقة يدفع القارئ الى أن (يحس بالانطباع والاصوات والجو المألوف الخاص به وأن يستطيع مراقبة الشخصية في عملها وأن يرى ما تراهُ الشخصية من وجهة نظرها وان يحس بما يحس به تجاه هذا المكان)[١٨].

(ها أنذا أفتكُ روحي من أسير أحياء القدس من جمال الحارات والبيوت والشرفات والساحات والابواب والاشجار...)[١٩].

(تنهض جمالية القدس العزيزة روحانية المكان، قدسية الخطأ التي مشاها سيدنا الخليل ...)[٢٠] .

(.... روح المدنية شاعت فيها فشملتها، كان ثمة مساحة واسعة مكشوفة تفصلها عن القدس...)[٢١].

تتحدد جزئيات المكان في هذه النصوص وغيرها، وتنكشف مضمراته التي تخلد وتغوص في اعماقه وتحيط به مما يعمق الحسّ الجمالي للقاريء/ المتلقي عند هذه الاماكن ويفتحه على متعدد من الفضاءات فيه عن طريق تحويل المرئي الى لغة مقروءة لا عن طريق التصوير الفني الواصف فحسب بل بهبوطهِ عميقاً الى طبقات المكان، فيتمكن القارئ من الولوج في بؤرتهِ للتعرف على أشيائه وظواهره[٢٢].

وعلى وفق هذا المنظور واختلاف مكونات المكان (المدينة) تختلف الدلالة على المكان وبالتالي يختلف وضفهُ في الرواية، أذ أختص الراوي ورفيقه (جو) في وصف المدينة/ المكان بكل دقائقها من طرات واشجار ومباني واسواق وكل جزئية تشير الى المكان أو تتعلق به، وهذه القراءة في بنية المكان سرعان ما تفاجيء المتلقي في قراءة بنبة النص المفتوحة على أفق شاسع من التحول

والتغيير، وهذه الخاصية (الانفتاح) على النص بالنسبة للمكان جعلت منه (مجالاً مفتوحاً للاجتهاد والتصورات المتعددة التي لم تصل الى حد بلورة نظرية عامة للفضاء)[٢٣].

هذه الخاصية وغيرها في نص الرواية تعمل على تفتيت المكان وامتصاصه وإنتاجه بصورة متغايرة حتى تحقق الوظيفة الشعرية والجمالية الفنية التي بها يتمظهر المكان في الخطاب بنكهة خاصة ومتميزة كنتاج مركب لتشابك الابعاد البنيوية الدلالية، والرمزية فضلاً عن البعد الجغرافي الذي يعمل على تنظيم خيال القاريء وترتيب معطيات تصوره[٢٤].

مراحل الوصف:

فوصف المكان يمر بمرحليتين متماثلتين، مرحلة الدهشة بالمكان والتي تقتصر على نظرية الراوي على مكونات المكان المادية ومحتوياته الخلاقة الساحرة، وأخرى عززها وجود الاماكن الدينية والتراثية والتي تعلو من الجانب الروحي في الرواية بما حوته من رموز ودلالات واشارات وما وصفته الشخصيات داخل هذه الاماكن.

(ما اجمل هذا الدرب العصي الصاعد نحو المغارة، وما أبهى هذه الاشجار الحانية عليه من اليمين والشمال حتى لتكاد تأخذه بين الذراعين، وما أطرب هذه الساقية البالية والمتخفية بين الاشجار والاعشاب، وما أكثر لمعان هذه البلاطات الحجرية السود)[٢٥].

إن استعمال اسلوب التعجب (ما أجمل، ما أبهى، ما أطرب، ما أكثر...) يشير الى مغامرة محفوفة باللذة والمتعة ومهاجمة القيود والمستحيل واختراق المجهول القبض على ما لا يمكن الامساك به من مساحات الخبرة الانسانية المتوارية عن الرؤية وتجديد العلاقة بين القاريء والعالم الخارجي وهي بمعنى ما وثبه وشهوة تتقدم في خرائط الذات والواقع وتنحصر في منحى الذات

ومكنوناتها، وتشكل تمرداً وعصياناً على استبدادية الواقع من قمع وظلم، فهي كتابة تنهض ضد الموت لتتعالى الحياة ولتنتفتح على فضاءات الحرية[٢٦].

وينتقل الراوي مموهاً وصفه وممهداً له إثاراته ودلالاته لينتقل الى وصف المغارة بعد أن يبدأ بعتبتها موضحاً إحساسه ومشاعره والذي يجد فيه ما يمجد حضوره وتوغله في خرائط الاشياء وتفاصيلها كل هذا يسيوقه ويوظفه في وصف مدخل المغارة.

﴿(أو يبدوا باب المغارة القوس الوسيع وتتبدى لاضواء الذهبية البهارة)،(ها أنا في مدخل المغارة وسط الاضواء الشديدة التي لا يدري المرء مصدرها، هل هو السقف أو الجدران).

(كان نظري شائحاً جوالاً يجوب هذه العجبية المكانية الفريدة ثمة متدليات صخرية هابطة من السقف مشدودة اليه يحسبها المرء ستسقط بين لحظة وأخرى من النوافذ والأخرى مثل نقاط الماء وثمة تجاويف ومسطحات وطاقات أسبه بالنوافذ وعتبات ودرجات وأعمدة وأجران ومصاطب مسطحة).

(كل شي داخل المغارة وردي اللون.. صمت يشوب المغارة فلا يسمع فيها سوى الاقدام المتنقلة بحذر وهمس الأدلاء للزائرين رهبة غير عادية.. لكان الجميع ينتظرون مفاجأة ما ..)[٢٧].

هذه الاوصاف التي يتبعها بوصف ايقونات المغارة ومداخلها ما يصطحب هذا الوصف من شعور داخلي، هذه وغيرها تشير الى سحرية المكان وجمالياته وطريفة توظيفه، إذ يرتبط هذا المكان بالجانب الروحي والديني والذي يجعل من المدينة (القدس) (مدينة الله) مدينة للمقدسات، وهذا ما يحيلنا الى رؤية مستهدية للمكان ينبثق الراوي من خلالها في التركيز على الاحداث البارزة والمهمة في مكان ما، جاعله منه مركزاً وبؤرة، فهي تضع إطاراً محدداً للمكان (المغارة) بخلفية مشهدية، حيث يلجأ الى أختيار مشاهد معينة من المكان والغوص في دلالاته.

فرسم معالم جمالية المكان عبر الوصف بجعل المتلقي أكثر حرصاً على متابعة الوصف ويجعل من النص رسالة مبطنة حيث تتداخل فيها المشاعر والاحاسيس والواقعي بالمتخيل والآني بالماضوي ليتشكل عنصر الدهشة والاعجاب والسحرية المطلقة بالمكان.

(عالم اسر بناء خرافي .. رسوم مدهشة أيقونات تفوق الخيال وبشر وأدعية وصلوات .. يا ألهي هذه هي الكنيسة تنهض ثم تنهض.. تبدو بكامل حجمها لكنها مدينة مثقلة بالشبابيك الطويلة والاقواس الرخامية والاسطحة المديدة، ها هي ذي ساحتها الخارجية وأشجارها وحدائق العشب ..)[٢٨].

إن محتويات هذا المكان بتنوعه ودلالاته ورموزه وايقوناته وتماهيه ووضوحه وابعاده الداخلية والخارجية تشير الى أن المكان ليس مجرد ذا ابعاد هندسية يستطيع الانسان أن يألفها بسهولة ويسر بل أضحى مساحة واسعة يؤطرها الاحساس والشعور الانساني.

هذا الاحساس لا منطقي مؤطر بتلوين ذاتي إجرائي يتحول فيه المكان الآني الى مكان نفسي عبر التماهي والاندماج في الوصف، كل هذا بنتهُ وصنعتهُ الخبرة النفسية بالمكان الناجمة عن مجموع من التطورات والخيالات، والذي أضحى مكاناً قلقاً للذات من حيث الاحساس به وتغريبه في النفس، وكذلك مصدر قلق للذات الواقعة تحت صدمة انفعال مدهش ومخيف.

وبهذا فنحن أزاء تبادل جدلي بين قطبي المكان الداخلي/ المقبرة عنه ذاتية داخلية أو آخر خارجي، فارتباك الداخل وتماهيهِ ماهو الا انعكاس لضغط الخارج على الروح والتي تجد من المكان النفسي خلاصاً من قسوة الحياة ومؤثراته الخارجية .

فالراوي هنا يرسم للمكان صورة سمعية بصرية مشتركة عبر الحوار فهو يصف المكان وإضاءاته بلغة شعرية مفعمة بالاحاسيس والخيال يندرج ذلك من مركزية المكان في الرواية المركزية الفاعلية التي يحيلها في هذا العمل والتي

تنتقل الى مستوغ الفعل لتؤثر وتتأثر وتشكل وتضيف وتعدل وتلغي، كل ذلك يندرج ضمن المستوى الشعوري بالمكان... فهو ضمن هذا المستوى يحمل العديد من المعاني والصور والدلالات ضمن أبعاده النفسية والاجتماعية والفيزيائية والتاريخية والدينية فضلاً عن وظائفه الفنية والجمالية التي ترتبط به ولا تفارقه.

هذه الصور وغيرها بأبعادها ودلالاتها أسهمت في تشكيل المكان الموصوف من خلال تصويره الفعل ووصفه لتحقيق الجانب الابداعي والجمالي في الرؤية، حيث وضع الراوي المكان وعلق عليه بلقاء ظلال المعاني والتشبيهات التي تحفز مخيلة القاريء لاكتشاف مضمرات الفعل الوصفي وضمائره المتعددة التي أتى بها الفعل فأضفت على الصورة دلالات متنوعة كشف عن الاختلاف بين الواقع والمتخيل.

وتنتقل الى فضاء آخر ومكان آخر تنطلق منه الاحداث يوظفه الراوي كفضاء محدد مفتوح دينامايكي أكثر منه سكوتي تخطى فيه بالحرية والتعبير عن مضمراتها بلغة الحوار مع الآخر في جو أكثر استيعاباً للشخصيات على اختلاف توجهاتها الايديولوجية والفكرية والثقافية والنفسية وأكثر استقطاباً للدفقات الشعورية والتعاطف الوجداني إزاء القضايا العامة للوطن والشعوب المتحررة والتي تشكل صورة المجتمعات المتنوعة وطبقاتها.

فضلاً عن كونها الذاكرة الحاضرة نصياً والاكثر فاعلية في شحن الواقع بالدلالات والعلامات والمرجعيات التي تنعكس في النص لغة متفاعلة مع الاحداث والرؤى، ورموزاً تعبر عن وحدات المجتمع وابعاده ومكوناته وسلوكياته مرتبطة بالشخصيات، وصوره وذاكرته التي تحيل الى أحلام الماضي والحاضر وصراعاته ... فضلاً عن كونها الذاكرة الحاضرة الاكثر فاعلية في شحن الواقع بالدلالات والرؤى المتنوعة وأخرى تشير الى طموحات المستقبل في رؤى ووجهات نظر تقترح الافضل والمتوقع عى شتى الا صوره المختلفة سياسيا وثقافياً واجتماعياً ومعرفياً.

(أمام المقهى الناهض على رابية معشوشة تقابلنا بوابته الخشبية ببسط ملونه تزينها رسوم لطيور البط، والاوز والكراكي، يهبط الحوزى جو فأهبط إلى داخل المقهى الذي راح يضيق علينا لكأنه مغارة متدلية من خاصرة الرابية، نوافذ مستخيفة دائرية وأخرى جانبية مستطيلة وتشكيلات خشبية بديعة .. مقهى طويل مستطيل .. تتجاوز طاولاته بحميمية غير عادية ..)[٢٩].

(رغم جمالية المقهى وسحره ...)[٣٠].

نلمس في هذه النصوص وغيرها أن المكان (المقهى) يمتلك مخزوناً اجتماعياً وثقافياً وتاريخياً ضمن سياقات تأخذ أبعاداً نفسية وايمائية واخرى رمزية ورابعة واقعية ترسم أبعاد القضية الفلسطينية بوصفها قضية تاريخية تتجذر في السياسة واشكالها المتراكمة في أزمنة الحرب والسلم لتغدو بؤرة الازمات والصراعات عبر قرون الزمان وعلى امتداد التاريخ.

وعليه يعد (المقهى بؤرة مكانية واجتماعية لها دلالاتها الخاصة في الخطاب الروائي العربي الذي وجد فيها علامة الانفتاح الاجتماعي والثقافي وانموذج مصغر لعالمنا)[٣١].

وهنا تبرز وظيفة المكان الدلالية بعمق إذ تتحول (المقهى) من مكان بارد موحش يشعرك أنك غريب لينتقل الى مكان صميمي لصيقاً بك كالعلامة الفارقة في تاريخية المدنية في القنوات الرئيسي فيكسب معادلة الفني والموضوعي للتاريخ يحاذيه ويتقاطع معه لكنه يحافظ على المسافة التي تحقق له استقلاليته وسيادته على المادة التاريخية التي يثيرها من الداخل بتقنياته حيث المتعة هي متعة النص بغض النظر إن كان المتلقي يعرف الحوادث التاريخية أو لا، فهو يستند الى تلك الواقعة التاريخية ليعيد انتاجها روائياً بما يتلائم مع روحية النص ومكانة المدنية المقدسة والتصاقها بالذات الإلهية في تعبيرها القدسي.

أن المكان هنا (يتحدد عبر الممارسة الواعية للفنان فهو ليس بناءاً خارجياً ولاحيزاً محدد المساحة ولا تركيباً في غرف وأسيجة ونوافذ بل هو كتاب الفعل المغير والمحتوى على تاريخ ما ..)[٣٢].

من خلال هذه الممارسة أقام المكان (المقهى) بنائيته المكانية من الاحداث والشخصيات تعلن عن مفارقتها الدلالية من مشاهد التحول والرجوع الى الماضي المماثل والحاضر الاتي ليجمع في سياقاته عوامل الاستسلاب والقيود والتقسيم الانساني والجغرافي لمدينة القدس باعتبارها مكوناً مكانياً دينياً يشمل البيئة بأرضها وناسها واحداثها وهمومها وتطلعاتها وتقاليدها وقيمتها، حيث يصبح (المكان كائناً حياً يمارس حركته في الخطاب يؤثر ويتأثر بباقي المكونات الروائية خاصة الشخصيات)[٣٣].

بهذا المفهوم وغيره يصبح المكان هنا شخصية ومسافة مقياسها الكلمات ورواية غائرة في الذات الاجتماعية كونه غطاءاً خارجياً ثانوياً الى وعاء يكتسب قيمته كلما كان متداخلاً مع باقي العناصر الفنية في الرواية، كذلك نراه عنصراً سياسياً في العمل الروائي (مدينة الله) يتخذ أشكالاً ويحمل دلالات مختلفة يكشفها التحليل وفق تصورها.

الوصف:

إن هذا الوصف بطبيعته المكانية وصياغته الدلالية (لا يخضع للمعنى إنما يمضي مع المعنى في سياق واحد، إنه ناتج حتماً من تغيير موقف الانسان مع الواقع غير أنه على مستوى النصب لا يظهر تابعاً لأي مضمون أو موقف سابق عليه لأنه هو نفسه يصبح مصدر المعنى أو على الاصح مصدر المعاني المتعددة اللامحدودة)[٣٤].

وعليه كانت المدينة المتمثلة بالأرض والوطن صوت الحقيقة الخارج من أعماق الصراع لسنين طويلة عبر عنه الروائي (حسن حميد) عبر الوعي بالذات ودوره الفاعل في الحياة والوعي بالاخرين وضرورة هدم حاجز الصمت والخوف والعمل على تفتيتهِ والتمرد، كل ذلك تباين صوراً ورموزاً

ورؤى داخل النص بما احتواه من قيم وأفكار وصراعات ووعي، فهو بنية غير ثابتة تتداخل أبعاده باتجاه فضاءات مكانية أخرى مثل الرواية تتشابك من خلاله الاحداث وتتفاعل معه، وهو عندما ينتقل من مداره الواقعي الحياتي الى مداره الفني يمر من (خلال أنفاق متعددة نفسية وأيديولوجية وفنية كي يصل اخيراً الى المدار الفني الروائي)[٣٥].

إن فعل الانتقال هذا يمر عبر حركة من الافعال التي تشكل بنى غير ثابتة تنعكس على الفضاء المكاني تجمع بين صور وافعال وانطباعات وتصورات واحداث تصب في محتواها في فضاء مكاني أساسي يتمثل في العنوان الرئيسي للرواية (مدينة الله) الذي يتشظى منه أمكنة أخرى مشوشة في ثنايا النص والتي منها:

(القدس، البيوت المتلاصقة، عتبات البيوت، الاسواق، الحارات، الشوارع، نبعة سلوان، الطريق، المغارة، أحياء القدس، برج اللقلق، الساحة الصغيرة، باب المغارة، الرامة، قلندية، المقهى، كنيسة القيامة، سان بطرس بيرغ، محيط الكنيسة، القبر، القصر، الشرفة الخشبية ...)[٣٦].

وبهذا يتشكل مجموع هذه الامكنة وفق تجاوز الهندسي والفيزيائي والاقتراب من العلاقات التي تنشأ بين الانسان والمكان وقدرتها على شحن الفضاء الروائي بقيم حضارية وتاريخية وثالثة ثقافية من خلال قيمة دلالية متواجدة في نصوص الرواية إذ تتشكل وفق رأي جوليا كرستيقا من خلال (شحنها على حضارة أمه معينة يسودها نمط ثقافي معين في عصر ما، وتطلق على ذلك لفظة ايديولوجيم ...)[٣٧].

الخاتمة:

ومن خلال هذه القراءة يمكن أن نستنتج ما يلي:

١- العتبة العنوانية المتمثلة في (مدينة الله) عنواناً مكانياً خالقاً شكلاً ومضموناً يرتبط بالمتن الروائي وهيمنه على جميع أجزاء النص الروائي في مفاصل الرواية المتنوعة .

٢- أكتسب المكان دلالته الايحائية والرمزية والبنائية إذ تنوعت دلالاته بعد تاريخي وآخر ديني وثقافي وواقعي إضافة الى بعد روحاني ينطلق من تلامح الثقافات المتنوعة وشمولية الفكر والقيم والثوابت والمتغيرات الإنسانية والأيديولوجية.

٣- لقد أستطاع الكاتب أن يوظف المكان توظيفاً خلافاً وفي علاقاته العضوية والفنية الاخرى، حسث أخرجه من إطاره العام الهندسي والفيزيائي لنفسه بدلالات وابعاد انسانية مكثفة تكشف بعمق مقدرة الكاتب الفائقة في مجال الراية المكانية.

٤- فالمكان في هذه الرواية ليس مجرد إطار للاحداث والشخصيات إنما هو عنصر حي فاعل في هذه الاحداث فهو حدث وجزء من الشخصيات وهو البطل المحوري في رواية (مدينة الله).

٥- اعتماد الراوي في تصوير أماكنه وتقديمها على الوصف والرؤية من الداخل الخارج بوصفها آليتين اساسيتين لتقديم المكان للقارئ وضمان تفاعليه معه والانقياد الى تاريخانيته.

هوامش البحث

(١) المكان ودلالاته في روايات جاسم الرصيف، سروى صباح، أطروحة، اشراف: د.فاطمة عيسى جاسم، ١٥/٢٠١١ .

(٢) شعرية المكان في الرواية الجديدة، خالد حسين حسين/٥ . (٣) شعرية المكان/٥ .

(٤) البروكيما أو علم المكان، ادوراد هلال، مجلة العرب والفكر العالمي، ترجمة: بسام بركة،ع٢، بيروت، ٦٨/١٩٨٨. (٥) شعرية المكان/ ٦ .

(٦) شهادة في شعرية الامكنة (مقدمات وخلفيات)، ج٣، مجلة الحرية، ع (٣٧٢)، قبرص، أب ١٩٩٠/ ٤٥ .

(٧) اشكال الزمان والمكان في الرواية، ميخائيل باختين، ت: يوسف حلاق/ ٢٣٤ .
(٨) الفضاء الروائي عند جبرا ابراهيم جبرا، د.ابراهيم جنداري/٢٥٦ .
(٩) المكان في الشعر الاندلسي في عصر المرابطين حتى نهاية الحكم العربي، محمد عويدات، محمد ساير/١٢٥ .
(١٠) بناة الشخصية في الرواية، أحمد عزاوي، ١٩٣.
(١١) دلالة المدينة في الخطاب الشعري العربي المعاصر، دراسة في اشكال التلقي الجرالي للمكان، قادة عقاق/ ٢٦ .
(١٢) الرواية، ١٣ (١٣) الرواية، ١١ (١٤) الرواية، ١٤ (١٥) الرواية، ١٥ (١٦) الرواية، ١٥
(١٧) الاليسنية والنقد الادبي، موريس ابو ناصر/ ١٤٤ .
(١٨) البيئة في القصة (مقدمة نظرية) مجلة الاقلام، ع٧، ١٩٨٩/ ٦٣ .
(١٩) الرواية/ ١٥ . (٢٠) الرواية/ ٢١. (٢١) الرواية/ ١٩ .
(٢٢) ينظر: شعرية المكان في الرواية الجدية، خالد حسين، ١٢٠، ١٢١.
(٢٣) قال الراوي، سعيد يقطين، ٣٣٨ . (٢٤) ينظر: ثغرات النص، صلاح فصل، ١٩٤ .
(٢٥) الرواية ، ٢٣ . (٢٦) ينظر: شعرية المكان في الرواية الجديدة، ٥٥.
(٢٧) الرواية، ٢٣، ٢٤، ٢٥. (٢٨) الرواية، ٥٠ . (٢٩) الرواية، ٤٧-٤٨ .
(٣٠) الرواية، ٤٨ . (٣١) العلامة والرواية، فيصل غازي، ١٣٩ .
(٣٢) إشكالية المكان في النص الادبي، ياسين النصير، ٨ .
(٣٣) بناة الرواية، (دراسة الرواية المصرية) عبد الفتاح عثمان، ٥٩ .
(٣٤) الاتجاهات في القرن العشرين، البريس، ترجمة: جورج طرابيش، ١٧.
(٣٥) جمالية المكان في الرواية العربية، شاكر النابلسي، ٩٢ .
(٣٦) الرواية ، ١١، ١٢، ١٣ ، ١٤، ١٥، ١٦، ١٧، ٢٠، ٢٤، ٢٩، ٣٤، ٣٩، ٤٠، ٩٩، ١٢٠، ٢٢٢، ٣٠٠، ...
(٣٧) علم النفس، جوليا كرستفيفا، ترجمة: فريد الزاهي، مراجعة: عبد الجليل ناظم، ٢٢ .

قائمة المصادر والمراجع

- المصادر

مدينة الله، رواية، حسن حميد.

المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ٢٠٠٩.

- المراجع

١- الاتجاهات الادبية في القرن العشرين، ألبريس، ترجمة: جورج طرابيشي، منشورات عويدات، بيروت، ط١، ١٩٦٥ .

٢- أشكال الزمان والمكان في الوراية، ميخائيل باختين، ترجمة: يوسف حلاق، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ط١، ١٩٩٠ .

٣- إشكالة المكان في النص الادبي، ياسين النصير، دار الشؤون الثقافة العامة، بغداد، ط١، ١٩٨٦.

٤- الالسنية والنقد الادبي (في النظرية والممارسة) مورسي أبو ناصر، دار النهار، بيروت، ١٩٧٩.

٥- البروكيما أو علم المكان، إدوارد جلال، ترجمة: بسام بركة، بيروت، مجلة العرب، والفكر العالمي، ع٢، ١٩٨٨ .

٦- بناء الرواية، (دراسة الرواية المصرية)، عبد الفتاح عثمان، مكتبة الشباب، القاهرة، (د.ت).

٧- بناء الشخصية في الرواية، قراءة في روايات حسن حميد، احمد عزاوي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٧.

٨- البيئة في القصة (مقدمة نظرية)، مجلة الاقلام، ع ٧، ١٩٨٩.

٩- جماليات المكان في الرواية العربية، شاكر النابلسي، مؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٩٤.

١٠- دلالة المدنية في الخطاب الشعري العربي المعاصر، قادة عقاق منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠١.

١١- شعرية المكان في الرواية الجديدة، خالد حسين، مؤسسة اليمامة الصحفية، الرياض، ط١، ٢٠٠٠.

١٢- ثغرات النص، صلاح فضل،عين للدراسات والبحوث الانسانية، ط٢، ١٩٩٥.

١٣- شهادة في شعرية الامكنة (مقدمات وخلفيات)، مجلة الحرية، ع٣٧٢، قبرص، أب ١٩٩٠.

١٤- علم النص، جوليا كرستيفا، ترجمة: فريد الزاهي، مراجعة: عبد الجليل ناظم، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط١، ١٩٩١.

١٥- العلامة والرواية (دراسة سيميائية في ثلاثية ارض السواج لعبد الرحمن منيف)، فيصل غازي، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان، ط١، ٢٠٠٩.
١٦- الفضاء الروائي عند جبرا ابراهيم جبرا، د.ابراهيم جنداري، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد،ط١، ٢٠٠١.
١٧- قال الراوي، سعيد يقطين، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ط١، ١٩٩٧.
١٨- المكان في الشعر الاندلسي في عصر المرابطين حتى نهاية الحكم العربي، محمد عويدات، محمد الساير الطربولي، مكتبة الثقافة، دار المصري، للطباعة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٥.